ندوة تداعيات حرب تموز/ 2006
على إسرائيل
أ. جواد الحمد

شكلت المواجهات الساخنة بين قوات الاحتلال الإسرائيلي وقوات المقاومة الفلسطينية في الجبهة الجنوبية، واللبنانية في الجبهة الشمالية (٢٥/ ٦ ـ ١٢/ ٧/ ٢٠٠٦) نقلة نوعية في ديناميات التوازن والردع بين الطرفين في إطار الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

لقد فاجأت المقاومة قوات الاحتلال بالقدرة الفائقة التي تتمتع بها من المعنويات والقدرات القتالية الميدانية، والوسائل التكتيكية المتنوعة التي تمارسها، وقدراتها على المناورة والكر والفر، وكفاءتها في استخدام الأسلحة المتاحة لها، وهي الحالة التي جعلت من ميدان المعركة بين الطرفين فرصة لإعادة الحسابات في المعادلات التي كانت سائدة من قبل، وهو ما مكن المقاومة في لبنان من تحقيق انتصار مرحلي مثير على قوات الاحتلال، ومكن المقاومة الفلسطينية من إرباك التخطيط الإسرائيلي إزاء استمرار العدوان.

إنَّ الحديث عن انتصار المقاومة لا يقصد به بالضرورة تحقيق نصر عسكري كاسح وتحقيق هزيمة عسكرية ميدانية مباشرة بقوات الدولة المحتلة أو المستعمرة، ولكن المقصود بانتصار المقاومة هو أمران:

ـ نجاح المقاومة في الصمود والمواجهة والقيام بعمليات قتالية متنوعة ومتغيرة الموقع والتكتيك أمام حجم القوة الهائلة التي يملكها العدو والمدعمة بأحدث أنواع التكنولوجيا العسكرية الحديثة، وبالتالي تمسك المقاومة النسبي بمواقع الأقدام، وتطبيق نظريات حرب العصابات بالكر والفر لصالح استمرار المعركة وإفشال خطط العدو لتدمير إمكانات المقاومة وقواتها واخضاعها أو دفعها إلى الاستسلام أو الهروب من ساحة القتال.

ـ تطور قدرة المقاومة على تحقيق الإثخان والخسائر المادية والبشرية بقوات العدو، واختراق دفاعاته الأمنية المتعلقة بالعمق المدني والداخل العسكري والصناعي والحيوي، وهو ما يعظم خسائر العدو الذاتية كثمن لهذه المواجهة.

كيف انتصرت المقاومة؟

باستخدام هذا التعريف فقد انتصرت المقاومة في لبنان وفلسطين على قوات الاحتلال الإسرائيلي في المواجهة معه على أكثر من صعيد، حيث تمكنت المقاومة من تنفيذ عمليات عسكرية نوعية في أرضه وضد قواته المسلحة التي تقوم بحماية حدوده ومناطقه المأهولة بالسكان، والتي تعتبر قوات ردع متقدمة ضد المقاومة، وذلك على صعيد عمليتي «**الوهم المتبدد**» التي نفذتها المقاومة الفلسطينية في ٢٥ حزيران/ يونيو ٢٠٠٦ شرق قطاع غزة، و«**الوعد الصادق**» التي نفذتها المقاومة اللبنانية في ١٢ تموز/ يوليو ٢٠٠٦ شمال فلسطين المحتلة، والتي تم خلالها تكبيد قوات الاحتلال قتلى وجرحى وتدمير دبابات، كما نجحت المقاومة في أسر جندي في غزة واثنين في جنوب لبنان. ونجحت أيضاً في امتصاص ضربات العدو الجوية والمدفعية على صعيد القوات العسكرية، وحشد الصمود الجماهيري على الرغم من التدمير وجرائم الحرب التي ارتكبها العدو، إثر هاتين العمليتين.

من جهة ثانية، أبدت المقاومة قدرة على استخدام كل أسلحتها وعلى المدى الزمني للمعركة، وإفشال خطط العدو وضرباته العسكرية من تحقيق أي تحييد لهذه الأسلحة، ونخص بالذكر النجاح اللافت للمقاومة باستمرار قدرتها على إطلاق الصواريخ على مناطقه المدنية والعسكرية بالرغم من الغارات الجوية المتلاحقة والقصف المدفعي المتواصل الذي يستخدم الأقمار الصناعية وأشعة الليزر لتحديد الأهداف ورصدها وملاحقتها.

وحققت المقاومة انتصاراً بليغاً على الإجراءات الأمنية الإسرائيلية من خلال استخدام الصواريخ التي تمكنت من تحقيق توازن نسبي مع طيران العدو، حيث فشلت إسرائيل في مواجهة هذه الصواريخ أو التصدي لها طوال فترة المواجهة، وبالتالي نجاح سلاح الصواريخ على الجبهتين في اختراق جبهة العدو، وتحويل أرضه ومنشآته ومدنه هدفاً لها كما فعل هو باستخدام الطائرات المقاتلة. كما نجحت المقاومة من جانب آخر في تحييد سلاح الطيران العمودي نسبياً عندما استخدمت صواريخ متطورة مضادة لهذه الطائرات وأسقطت ستاً منها، وهو ما دفع العدو إلى استبعاد استخدامها بكثافة كما هو الحال في قطاع غزة حيث لا توجد هذه الصواريخ.

ومن المهم هنا الإشارة إلى نجاح المقاومة في منع العدو من تحقيق أي نوع من الاستقرار خلال اجتياحاته المحدودة للمناطق اللبنانية والفلسطينية، واستمرار قدرة المقاومة على إخراجه ودحره من أي كيلومتر يتقدم إليه لبضع ساعات أو أيام، ونجاحها في إفشال عمليات الإنزال الخلفية التي حاول القيام بها خلف خطوط المقاومة في لبنان، أو في قطاع غزة.

إن الإشكالية الأساسية التي تواجهها المقاومة في الجبهتين الفلسطينية واللبنانية هي العمليات السياسية غير المنسجمة مع نتائج المواجهات على الأرض، وذلك عبر قرارات الأمم المتحدة التي تمليها الولايات المتحدة لصالح إسرائيل أو الضغوط العربية الرسمية التي تخشى المواجهة مع إسرائيل، أو من خلال بعض القوى الداخلية التي لا تؤيد برنامج المقاومة لاعتبارات سياسية واقتصادية وفكرية، ولا تصب تحركات هذه القوى مجتمعة في صالح قطف ثمار هذه المقاومة، بل قد توفر للعدو أحياناً طوق النجاة من الهزيمة العسكرية التي تحققت على الأرض، لتوفر له بالتالي بعض الانتصار السياسي بقصد أو بغير قصد، حيث تلجأ هذه القوى إلى استخدام حجم الدمار والقتلى والخسائر التي نجمت عن الحرب ذريعة وتبريراً لمواقفها هذه، وكأن الحرب نزهة أو فسحة، أو أن المواجهة بين المقاومة الشعبية وقوات الاحتلال يمكن لها أن تمضي بلا خسائر.

كما يلجأ البعض إلى التقليل من الانتصار ونتائجه في مجال تكبيد العدو الخسائر المادية والبشرية، والتي لا يسمح الطرف الإسرائيلي بنشرها أو تغطيتها إلا من خلال الرقابة العسكرية كما هو معروف، وبالطبع يسقط هؤلاء من حساباتهم ما يتعلق بهدف المقاومة الأساسي بتحقيق الحرية والكرامة والاستقلال والتحرير، واجبار العدو على الانسحاب بتراكم الخسائر البشرية والمادية لديه، تلك المعادلة التي كانت وراء انسحابه من لبنان عام ٢٠٠٠ ومن غزة عام ٢٠٠٥ في تجربتين نادرتين في تاريخ الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

وخلاصة القول إن المقاومة على الجبهتين اللبنانية والفلسطينية حققت الانتصار العسكري والأمني على العدو، وراكمت انجازاتها السابقة لصالح دفعه إلى الانسحاب من الأراضي المحتلة، وإعادة التفكير بسياساته الاحتلالية، ووضعت المقاومة، بذلك، الكرة في ملعب السياسيين العرب والفلسطينيين ليحققوا انتصاراً سياسياً على العدو، ولكن المقاومة في النهاية صنعت معادلات ردع وتوازن جديدة مع الاحتلال يجري في أروقة جيشه وقادته السياسيين التفكير والبحث الجاد فيها بعيداً عن الدعاية والإعلام. وعلى قادة المقاومة والقادة السياسيين في فلسطين ولبنان أن يدركوا هذه الحقائق ويتعاملوا مع المرحلة والمعطيات وفقها، وذلك من دون التفات إلى بعض الإرجاف هنا وهناك، ممن لا يعون الحقائق إلا متأخرين، أو ممن يعتقدون أن هذا الانتصار هو لفئة معينة على حساب فئة أخرى في البنية الفلسطينية أو اللبنانية، أو ممن لهم دوافع واتجاهات أخرى لا تتقاطع بالضرورة مع الأهداف التي سقناها أعلاه للمقاومة، ومن يعش يرَ نتائج هذا الانتصار والتراكم النضالي الذي يحققه، ويدرك حقيقة هذا الانتصار الكبير وقوته ومغزاه مهما حاولت وسائل الإعلام المعادية أو المهزومة أن تخفي حقائقه مرحلياً.

ويمكن الإشارة إلى أهم التداعيات القابلة للرصد في هذه المرحلة:

(١) تمكنت المقاومة بانتصارها العسكري والأمني من خلخلة البنية السياسية والاجتماعية والفكرية داخل المجتمع الإسرائيلي، وهي سجلت نقطة مهمة في إطار الصراع العربي ـ الإسرائيلي من خلال إضعاف نظرية الأمن الإسرائيلي، وكفاءة الرد، وإبطال برامج نشر الهزيمة النفسية في العالم العربي... استناداً إلى الأسطورة العسكرية والأمنية، كما يشار إلى سقوط أو جمود برنامج الحكومة الإسرائيلية الأساسي القائم على خطة الانطواء على الصعيد الفلسطيني.

(٢) كما إنها كشفت إمكانية إلحاق الأذى بإسرائيل عسكرياً، وخلق وسائل قتالية تتوازن مع وسائل التفوق الإسرائيلي، وتحييد وسائل أخرى.

(٣) كشفت المواجهة أن إسرائيل دولة لا يمكن الاعتماد عليها بالمطلق على الصعيد الغربي، بل تحتاج إلى إسناد وحماية في ظل معركة وقتال حقيقيين مع الجانب العربي، وهو ما أقلق الولايات المتحدة وأوروبا التي تربط سياساتها وأهدافها في الشرق الأوسط بقوة إسرائيل وهيمنتها.

(٤) أصاب صورة إسرائيل في العالم، مرة جديدة، تشوهات مهمة في ما يتعلق

(٥) لا شك في أننا نحذر هنا من تمكين إسرائيل من تحقيق بعض أهدافها سياسياً بعد فشلها العسكري، وبخاصة في ما يتعلق باللجوء المتواصل إلى الأمم المتحدة التي تخضع للتوجيه والضغط الأمريكي الإسرائيلي.